أثر مراعاة الجوانب السوسيولوجية في تكوين الملكة في الدرس الحديثي

د. أشرف عبد القادر المرادي* **د. محمد عبد الله الأطرش***

تاريخ وصول البحث: 2024/9/14م تاريخ قبول البحث: 2025/4/8م

الملخص

إن المطلع على ما ألفه علماء الحديث في مصنفاتهم المختلفة يدرك أن هذا التراث الهائل قد ضم نصوصا كثيرة تنبئ اهتمام علماء الحديث بمراعاة الجوانب السوسيولوجية لدى المتعلم، وعن التأصيل للكثير من الشروط الاجتماعية التي اعتبروها ركنا في استتمام لبنات تحصيل الملكة العلمية، وشرطا في صحة عملية التدريس، فما برحوا باثين لها في مؤلفاتهم، وما فتئوا منبهين على أهميتها في إنجاح العملية التعليمة؛ إذ إن التعلم يستند في شق كبير منه إلى النظريات السوسيولوجية التي يمده بها علم الاجتماع بمختلف فروعه، فما لم نعرف شروط المتعلم المرتبطة بالمجال السوسيولوجي؛ فإن إيصاله إلى منزلة الملكة أمر يستحيل إدراكه، لذلك كان علماء الحديث على معرفة بتلك الشروط، وعلى إحاطة وظيفية بها، بما يكفل لهم تخريج طالب الحديث النبوي وعلومه، وهذا لا يعفينا من الانفتاح على ما استجد في علم الاجتماع التربوي، الذي يمدنا بتدقيقات لم تشرف عليها أنظار علمائنا، كل ذلك باستحضار مبدأ الوظيفية، والعرض على خصائص الذات. وهذه الورقة تهدف إلى الكشف عن جهود علماء الحديث في مراعاة الجوانب السوسيولوجية لدى المتعلم، كما تهدف أيضا إلى بيان استصحاب المتقدمين من علمائنا لهذا المدخل في التدريس، وذلك باعتماد المنهج الوصفي في جمع المادة وتوثيقها، والمنهج التحليلي في تفسيرها وتفكيكها. وقد خلص البحث إلى أن إصلاح الدرس الحديثي الجامعي، يحتاج من ضمن ما يحتاج إليه إلى مراعاة الجوانب السوسيولوجية لدى الطالب مما يجعله مُسْهِما في تحصيل العلم، بدل جعله متلقيا سلبيا.

الكلمات المفتاحية: الأصل السوسيولوجي، الملكة العلمية، الدرس الحديثي.

* دكتور.

The Effect of Considering Sociological Dimensions in Developing Competence in the Hadith Course

Abstract

The study attempts to review the works authored by Hadith scholars in their various writings which reveals that this immense heritage contains numerous texts that indicate a significant concern among these scholars for the sociological aspects of the learner. They established many of the social conditions they considered foundational for completing the building blocks of scholarly competence and essential for a valid teaching process. They consistently articulated these in their works, repeatedly emphasizing their importance for the success of the educational process, as learning heavily relies on the sociological theories provided by sociology in its various branches. Without understanding the conditions of the learner related to the sociological field, guiding them to the stage of true competence is an impossible goal to achieve. Therefore, Hadith scholars were well aware of these conditions and had a functional command of them, which enabled them to graduate students proficient in Hadith and its sciences. This does not exempt us from engaging with new developments in educational sociology, which provide insights not overseen by our classical scholars, all while maintaining the principle of functionality and evaluating them against the specific characteristics of our tradition. This paper aims to uncover the efforts of Hadith scholars in considering the sociological aspects of the learner, and also aims to demonstrate how our earlier scholars incorporated this approach in their teaching. The study relies on a descriptive methodology for collecting and documenting the material and an analytical method for its interpretation and deconstruction. The research concluded that the reform of the university-level Hadith course, among other necessities, requires attention to the sociological dimensions of the student, making them an active contributor to knowledge acquisition rather than a passive recipient.

Keywords: Sociological origin, scholarly competence, Hadith studies.

مقدمة:

لا يمكن الحديث عن تكوين الملكة في علم من العلوم بمعزل عن استحضار متغيرات المجتمع وسلطته المؤثرة؛ إذا لا يوجد عالم أو طالب علم إلا وللمجتمع تأثير على تكوين شخصيته العلمية قل ذلك أو كثر؛ فالعالم ابن زمانه، لا يمكنه الانفصال عنه، ولا يستطيع الانفكاك عن مؤثراته؛ لأن ذلك مخالف للطبيعة التي أودعها الله تعالى في خلقه، وهي أن ما يحتف بهم من صوارف المجتمع، وما يواجَهُون به من عوارضه، يجد طريقه إلى عقولهم ونفوسهم فتعمل عملها؛ فالذي نشأ في مجتمع تكثر فيه المجادلة والمناظرة فلا شك أن يتأثر بذلك، ومن نشأ في بيئة لا تعرف هذه المسالك في التلقي والطلب، فلا شك أن تضمر عنده. وأصل هذا في القرآن الكريم، قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [18: الزخرف].

"فالعالم لا ينفك عن التفاعل والاحتكاك بالمحيط العلمي الذي يتصل به، غير أن هذا التفاعل والاحتكاك لا يؤتي مدده؛ حتى يكون للعالم اتصال وانفصال؛ اتصال يجعله يفيد من أفكار ذلك المحيط العلمي وأعلامه، ويحسن التأثر بهم على نحو تتكامل به معرفته. وانفصال يجعل له فرادَته الخاصة، بحيث لا يكون مستلبا لكل من يتصل به، بل يأخذ منه ما يلائم منهجه، كما يؤهله للتأثير فيه كما أهله من قبل للتأثر به. وبذلك الاتصال والانفصال يحسن الإقبال والإدبار بحسب ما تسيّره عليه عبقريته"[1].

فالمدخل السوسيولوجي مؤثر غاية التأثير، ولا يمكن إغفاله عند الحديث عن تكوين الملكة العلمية، وعن مخرجات الدرس العلمي عموما، والدرس الحديثي خصوصا؛ لأن المقصود من دراسة علوم الحديث في نهاية الأمر، هو اقتدار الطالب على وصلها بمجتمعه، وتمكنه من الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تثار حول مصادر السنة، وقدرته على الدفاع عن حياضها من الشبهات التي تلقي بها بعض وسائل الإعلام، مما يضعف هيبتها في نفوس المسلمين، ويجرئ الحدثاء على الطعن في دواوين السنة، حتى صرنا نسمع رضع العلم يضعف أحاديث في الصحيحين، وآخر ممن لم يشم أنفه رائحة علوم الحديث، ولا مارس تخريج حديث واحد، يتهم أئمة النقد بالتساهل في التصحيح والتضعيف، وأنهم رجال ونحن رجال، وهلم شرا من الشبهات التي تسربت إلى عقول الناشئة.

لذلك فإن من آكد أهداف الدرس الحديثي، تمليك الطالب الأدوات المعرفية والمنهجية التي يستطيع بها تصفية السنة من شوائب الشبه المعاصرة، وتدريبه على أساليب الحجاج والمناظرة التي يقوى بها على الدفاع عن مصادرها. وهذا ليس مقصدا غريبا على علماء الحديث، ولا هو بالدخيل الذي يعد من مُلَح علوم الحديث، بل إنه من آكد مقاصد التأليف عندهم، ومن أهم الأهداف التي حفزت همتهم على التصنيف، كما صرح بذلك الإمام الحاكم (ت405هـ) [2]. وإنما أوردت هنا الحديث عن الوظيفة الحجاجية[3] لعلوم الحديث للتنبيه على علاقتها بالمدخل الاجتماعي؛ لأنها وطيدة الصلة به.

كما أن الأصل السوسيولوجي يجعل طالب علم الحديث في مختلف مراحل طلبه، وفي كل محطات تحصيله، مستحضرا كيفية وَصْلِ ما تعلمه بمجتمعه، وسبل استفادته مما تلقاه طيلة سنوات تكوينه في حياته اليومية، فيكون تعلمه وظيفيا؛ أي خادما لاحتياجاته اليومية، فيترسخ لديه أن هذه العلوم ليست نائية عن المجتمع، وليست مقطوعة الصلة بالواقع؛ بل إنها ما وُضِعت إلا لإسعاده، وتوجيهه نحو المنهج الذي يسوقه إلى صحة الامتثال والتعبد، وأن نفعها متعد إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، لذلك فإن مدخل الملكات يقوم "على مبدأ وظيفية المعرفة؛ أي: إن المعرفة غير مقصودة لذاتها، وإنما باعتبار ما يترتب عليها من آثار نافعة للطالب في خاصة نفسه ومجتمعه.

وهذه الوظيفية تبرز تميز النظرية التربوية الإسلامية عن طريق التأثيث لبناء مناهج تعليمية لا تحصر هدفها في تحقيق طموحات الفرد؛ بل تسعى – بالموازاة مع ذلك – إلى إعداده لخدمة أمته ومجتمعه، وتنمية روح الولاء الجماعي في نفوس طلبة العلم"[4].

ومن أكثر العلماء تنبها على أهمية المدخل السوسيولوجي في الرقي بالتعليم، الإمام ابن خلدون (ت808هـ) فقد كان حفيا بذكره والتنبيه على أهميته، وعقد المقارنة بين أقطار العالم الإسلامي وبيان أوجه المفاضلة بين المدن التي ظهر فيها التحضر وكيف أثر في التعليم، وبين البدو الذي انقطع فيها سند التعليم بسبب نقصان العمران والحضارة، وقد عقد فصلا مستقلا لهذا الغرض، لبيان أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة[5]، يقول فيه: "اعتبر ما قررناه بحال بغداد، وقرطبة، والقيروان، والبصرة، والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم، وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون؛ حتى أربوا على المتقدمين، وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص

عمرانها، وابذعر سكانها؛ انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام" [6].

وقد كان كثير اللهج بهذه الثنائية، ثنائية الحضارة والعمران وجودة التعليم، وذكرها في مواضع عدة من مقدمته، وعقد عليها مقارنات وشواهد دالة على أهميتها[7].

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

وقد جاء هذا البحث للإجابة عن سؤال: كيف اهتم علماء الحديث بالأصل السوسيولوجي في بناء التعلمات وفي تكوين الملكة الحديثية؟

هذا الإشكال العام يمكن تفريعه إلى أسئلة إجرائية هي:

أ- هل للأسرة أثر الأسرة في تحصيل الطالب؟

ب- ما دور الأقران في تحصيل الطالب؟

ج- إلى أي حد تؤثر الصوارف الاجتماعية على تحصيل طالب علم الحديث؟

د- هل للتربية الصحية دور في بناء شخصية طال علم الحديث؟

أهداف دراسة:

وذلك تحقيقا للهدف العام التالي: الكشف عن الأصول السوسيولوجيية وبيان أثرها في تكوين الملكة الحديثية.

هذا الهدف العام يمكن تفريعه إلى أهداف دقيقة كالآتي:

أ- إبراز دور الأسرة وأثرها في تحصيل الطالب.

ب- بيان أثر الصوارف الاجتماعية وماجريات الحياة على تحصيل الطالب.

ج- تجلية شروط التربية الصحية وأثرها على شخصية طالب علوم الحديث.

المنهج المعتمد في الدراسة:

وقد اقتضت طبيعة إشكال البحث اعتماد المنهج الوصفي في جمع المادة العلمية من مظانها ونقلها، واستقرائها في مصادرها وتوثيقها، مع الاستعانة بالمنهج التحليلي الذي اعتمد في تفسير النصوص وتحليلها، وتفكيكها وإعادة بنائها بما يخدم أهداف البحث، مع تسليط أدوات النقد والنقض على بعض الممارسات التربوية عند علمائنا، والتي تبين بالدراسات المعاصرة أنها تحتاج إلى تعديل وإصلاح.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في تشجيع الطلبة والأكاديميين على البحث في أصول علم التدريس في التراث التربوي الإسلامي؛ لأنه غني جدا بالنصوص التي تدل على السبق الزمني لعلمائنا في التأصيل للكثير مما هو متداول في علم التدريس، لأن تقديم نظرية تربوية واضحة المعالم والأسس، لن يتحقق إلا من خلال تراكم معرفي على مستوى البحوث المنجزة في هذا الموضوع.

التعريفات المفاهيمية:

- الملكة: هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة [8].

- الدرس الحديثي: هو مجموع الخطوات والإجراءات المنظمة التي يتبعها الأستاذ في تدريسه لعلوم الحديث النبوي، منذ مرحلة التخطيط، ومرورا بمرحلة التنفيذ، ووصولا إلى مرحلة التقويم.

- الملكة الحديثية: هي اكتساب مسائل علم الحديث، والقدرة على التصرف فيها تخريجا، وتصحيحا، وتضعيفا، وتدريسا، وتأليفا [9].

خطة الدراسة:

كل ذلك وفق خطة انطلقت من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

- المقدمة تضمنت ذكر موضوع البحث، وإشكاله، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، وخطته.
- المبحث الأول: الأسرة وأثرها في تحصيل طالب علم الحديث.
- المبحث الثاني: الأقران وأثرهم في تحصيل طالب علم الحديث.
- المبحث الثالث: أثر الصوارف الاجتماعية على تحصيل طالب علم الحديث.
- المبحث الرابع: التربية الصحية وأثرها على شخصية طالب علم الحديث.
- الخاتمة وفيها أهم الخلاصات والتوصيات.

المبحث الأول: الأسرة و أثرها في تحصيل طالب علم الحديث.

إن للأسرة أثر بالغ في رسم طريق طالب العلم، وأهمية قصوى في حفز همته على مواصلة السير في التحصيل، وتشجيعه على إتمام مشاريعه العلمية التخصصية. وتاريخ الأمة الإسلامية زاخر بالشواهد المنبئة عن هذا الاهتمام الذي يجده طلبة العلم من قبل آبائهم وأمهاتهم وأفراد أسرهم عموما، وهذا نابع من معطى مهم، وهو نظرة المجتمع إلى العلم وطلبته. فلما كان الرعيل الأول، يعظمون العلم، وينظرون إلى علمائه وطلبته نظر الفخر والاعتزاز، وأنه أحب ما يتوق

الآباء وصول أبنائهم إليه، كان الطالب بالتبع يُقْبل بكليته عليه، وينفق على ذلك ماء شبابه، وزهرة عمره؛ لأن المجتمع لا بقاء فيه إلا للأقوى علما، والأرسخ معرفة. لكن لما حل الضعف بالأمة – الذي تسرب إليها بسبب عوامل كثيرة – صار المجتمع ينظر أحيانا نظرة احتقار وسخرية إلى المتخصصين في علوم الشريعة، وصارهَمُّ بعض الأسر أن يتخصص آبناؤها في أي علم من العلوم الحقة، أو حتى الإنسانية، غير الشريعة؛ نظرا للتمثلات التي تثار حولها، من أنها علوم غير موصولة بسوق الشغل، أو أنها علوم تعتمد على الحفظ الأعمى، وأنها تعطل القدرات الذهنية للطالب، وهلم جرا من العوامل التي تحطم همم الطلبة المتحمسين إلى التخصص في علوم الشريعة عموما، وفي علوم الحديث خصوصا على صخور اليأس والإحباط.

وقد سطر هذه المعاني كلها، العلامة محمد الطاهر ابن عاشور (ت1393ه) بقوله: "إن الناس يجعلون للعلم قيمة متى دخل في عداد حاجاتهم"[10].

لذلك لما يكون المحيط محفوفا بمجالس العلم، وحلق التحديث، ويكون الطلاب في تردد مستمر عليها غدوا ورواحا، لا يجد الطالب إلا أن يسلك طريقتهم، وينهج نهجم، وإذا تخلف تخطفته ألسنتهم بالعتاب على التفريط فيها وإضاعتها، ومن الشواهد العزيزة، والإشارات الأثيرة ما ساقه الإمام الذهبي (ت748ه) في ترجمة الحافظ المحدث محمد بن عوف – محدث حمص – قال: "قال عبد الصمد بن سعيد القاضي: سمعت محمد بن عوف يقول: كنت ألعب في الكنيسة بالكرة وأنا حدث، فدخلت الكرة، فوقعت قرب المعافى بن عمران الحمصي، فدخلت لأخذها، فقال: ابن من أنت؟ قلت: ابن عوف بن سفيان. قال: أما إن أباك كان من إخواننا، فكان ممن يكتب معنا الحديث والعلم، والذي كان يشبهك أن تتبع ما كان عليه والدك. فصرت إلى أمي، فأخبرتها، فقالت: صدق، هو صديق لأبيك. فألبستني ثوبا وإزارا، ثم جئت إلى المعافى، ومعي محبرة وورق، فقال لي: اكتب: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد ربه بن سليمان، قال: كتبت لي أم الدرداء في لوحي: اطلبوا العلم صغارا، تعملوا به كبارا، فإن لكل حاصد ما زرع"[11].

وبهذا الاعتناء البالغ، والحرص الشديد، كان محمد بن عوف (ت272ه) إماما من أئمة الحديث، وحافظا من حفاظه، وما كان لهذا التحفيز من المعافى بن عمران الحمصي إلا أن يجد عناية واهتماما من قبل والدة محمد بن عوف، فلما تضافرت الجهود، وتوحدت المقصود، استطاعوا تخريج من جعله الله سببا في خدمة حديث رسول الله ﷺ.

ولما ترجم الإمام الذهبي (ت748هـ) للحافظ ابن القرطبي الأندلسي (ت611هـ)، ذكر أنه ورث صناعة الحديث عن أبيه، فقال: "قال الأبار: كان من أهل المعرفة التامة بصناعة الحديث، والبصر بها والإتقان والحفظ، لاسيما الرجال، والتقدم في ذلك [...] ورث براعة الحديث عن أبيه، ولم يكن أحد يدانيه في الحفظ، والجرح والتعديل"[12].

ومن لم يكن من الآباء من أهل الحذق والصناعة بالحديث، كان متهمما بدفع أبنائه إلى حلق التحديث؛ لينشأ على سماع الحديث مبكرا، فينتفع بذلك في كبره، من ذلك ما أورده الحافظ الذهبي في ترجمة عز الدين بن عبد الغني المقدسي (ت613هـ)، حيث قال: "نشأ في صغره باعتناء أبيه في هذا الشأن [يقصد طلب الحديث]؛ فارتحل إلى بغداد، وهو ابن أربع عشرة سنة"[13].

ولم يكن الأمر قاصرا على الآباء فقط، بل تعدى ذلك إلى الأخوال وذوي القرابة عموما، فقد ذكر الإمام الذهبي (ت748هـ)، أن الإمام الحاكم أبا عبد الله (ت405هـ) نبغ في الحديث بسبب طلبه له في الصغر، وحرص أبيه وخاله على سماعه مبكرا، فقال: "طلب الحديث من الصغر باعتناء أبيه وخاله"[14].

ومن صور اهتمام المحدثين بأبنائهم، وبذل الجهد في توجيههم إلى الطلب والتحصيل، وعدم الالتفات إلى غيره، اعتناء الأمهات بالأبناء بعد وفاة أزواجهن، فلم يكن فقد الأب عائقا يحول بين الأم وبين إتمامها مسيرة تخريج الأبناء.

ومن شواهد ذلك ما نقله الإمام الذهبي (ت748هـ) عن أم سفيان الثوري رحمها الله، أنها قالت لابنها سفيان: "اذهب، فاطلب العلم؛ حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا، فلا تتعن"[15].

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ) في ترجمة إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الطرابلسي (ت841هـ): "مات أبوه وهو صغير، فكفلته أمه، وانتقلت به إلى دمشق، فحفظ بها بعض القرآن، ثم رجعت به إلى حلب فنشأ بها، وأدخلته مكتب الأيتام فأكمل به حفظه، وقرأ في الحديث على علي الزين العراقي، والبلقيني، وابن الملقن وجماعة كثيرة، وروي عنه أنه قال: مشايخي في الحديث نحو المائتين"[16].

فهذه صور من اعتناء الأسر بالأبناء، وحرصها على توجيهها نحو المسار الصحيح في الطلب، والعناية الشديدة على تنشئتها نشأة سليمة، فتخرج بهذا الاهتمام جيل من الأئمة الأفذاذ، استطاعوا خدمة الأمة خدمة لم تشهد مثيلا لها بعد.

المبحث الثاني: الأقران و أثرهم في تحصيل طالب علم الحديث.

من الأمور المهمة التي لها تعلق بالمدخل السوسيولوجي، والتي كان لها بالغ الأثر والوقع على مسار التحصيل لدى طلبة علوم الحديث، القرين الصالح المصاحب للطالب؛ فقد كان اتخاذ الرفيق الصالح من أعون ما يصبر طالب الحديث على شدائد التحصيل، ومشاق الرحلة، ونصب السفر، وقد كان الواحد منهم يعين أخاه إما بتسميعه ما فاته في حِلق الشيخ، أو إعارته الكتب التي هو بحاجة إليها، أو بمذاكرته ومطارحته. وقد نبه الإمام السخاوي (ت902هـ) على هذا بقوله: "منها الرفاق الذين كانوا غاية في الديانة، والتواضع، والاعتناء بالشأن، والاهتمام بفنونه، والبعد عن التوغل في الغل، والحسد، والكتمان، وتكرر ذكر ما يقتضي الامتنان. فذا يعين رفيقه نوبة بالقراءة، ومرة بالكتابة، وأخرى بالعارية، ووقتا بالمذاكرة، ومرة بالتنبيه على ما السلامة منه مختصة بالمعصومين، والآخر يفعل مع رفيقه أيضا كذلك. ويجمل كل واحد منهم الآخر بقلمه ولسانه، ويوجه ما ظاهره القبيح من قول أو فعل بالتوجيه المرضي، حتى يصرفه عما يخالفه، ويثني من تأخرت وفاته على صاحبه الثناء الجميل، وربما يرثيه إن أحسن. ولتلبسهم بذلك، كانت لهم جلالة ووجاهة، وفيهم كثرة"[17].

ومن أجمع النصوص، وأعمقها دلالة على أثر الأقران في الطلب والتحصيل، ما ساقه الشيخ عبد العزيز بن محمد بن الصديق الغماري (ت1418هـ)، لما سئل عن الحال الذي كان عليها في مصر، وما آله إليه وضعه بعد رجوعه إلى طنجة، فقال: "من المُسَلَّم به أن القاهرة أيام كنا مقيمين بها، كان سوق العلم رائجا بها، وكان العلماء يأتون إليها من جميع البلاد الإسلامية، زيادة على العدد الجم من الطلبة المنخرطين في الجامع الأزهر من جميع الأقطار والأجناس. فكان حال المقيم بها في اشتغال دائم بالعلم وحركة الفكر تلقائيا، بطبيعة الاتصال والاجتماع بهذه الجموع التي تأتي القاهرة لأجل العلم، والبحث في العلم والاتصال بأهل العلم. فلأجل هذا، كنا في القاهرة في أغلب أيامنا نبحث ونتذاكر في المسائل العلمية، ونتذاكر في كتب العلم وما نُشِر منها وما لم ينشر [...] وكانت الإقامة في مصر عبارة عن مدرسة علمية؛ سواء كان الإنسان بين جدران جامع الأزهر، أو خارجه؛ بل ربما في بعض الأحيان كانت تحصل المناظرة في المسائل العلمية مع العلماء وطلبة العلم حتى في محلات بيع الكتب. فلما رجعنا إلى طنجة، وجدنا الأمر خلاف هذا تماما، ووجدنا الفرق بينهما كالفرق بين الحياة والموت، وجدنا ميدان العلم راكدا. والعلماءُ المنتسبون إلى العلم لا همة لهم في البحث ولا في مذاكرة العلم، ولا في مقابلة أهل العلم، بل كل واحد منطو على

نفسه، مشتغل بشؤون دنياه، وما يتعلق بشخصه. فحصل لنا لأجل هذا شبه صدمة نفسية، وتوقف فكري جمد ما في النفس من تشوق وتطلع وطموح إلى نشر العلم بين طلبته ومباحثة أهله [...] فأين الكتب والمجلات والمنشورات المتعلقة بالعلم [...] فهذا أيضا كان له أثر نفسي في حياتي الجديدة في طنجة، فكثيرا ما كنت أضطر إلى كتاب من كتب الحديث التي ليست بالغريبة ولا النادرة، ومع ذلك لا أجدها [...] وقد ترتب عن هذا أنني تأخرت عن إتمام كثير من المؤلفات التي كنت بدأتها بمصر لعدم وجود المراجع الكافية في موضوعها، ولعدم وجود الجو المشجع للاشتغال بها؛ لأن الإنسان ينفعل بحسب بيئته ووسطه"[18].

المبحث الثالث: أثر الصوارف الاجتماعية على تحصيل طالب علم الحديث.

لا أبالغ إن قلت إن من أكبر العوائق الصادة عن استكمال برنامج الطلب، ومن أشد الغوائل تأثيرا في استتمام مشروعه في تحصيل الملكة الحديثية، كثرة الصوارف الاجتماعية، وتفرق الهموم وتوزعها؛ فلا يبقى للخاطر من طلب العلم إلى النزر اليسير؛ إذ إن المدنية بمختلف عوارضها، صارت تلقي بثقلها على الطالب، فتجده موزع الهموم، تارة في مواقع التواصل الاجتماعي، متابعا السجالات الحاصلة بين التيارات الفكرية المعاصرة، وتارة أخرى في شعاب المناظرات الحزبية وما يجري في الواقع، وأخرى في هم البحث عن وظيفة يضمن بها لنفسه قوتا يحفظ به ماء وجهه، وأخرى مع عوارض مرض أسرته؛ فلا شك أن هذه العوارض تكدر الخاطر، وتفرق الهم، مما يجعل تركيزه التام على مشروعه الذي أرسى معالمه في بداية الطريق أمرا عسرا.

والطالب كلما ألقى بنفسه في شعاب الحياة وهمومها، لا شك أن يدخله الضرر قل أو كثر، ولا يرجى له التعمير طويلا في العلم، بله أن يصير من ذويه والمتحققين به على التمام والكمال؛ لأن كلمة العلماء مجمعة على أن الطالب يُحَصِّل العلم على قدر تفرغ باله، وقلة صوارفه.

فالإمام الماوردي (ت450هـ) لما ذكر الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب، مع توفيق الله تعالى له، حصرها في تسعة شروط، وذكر منها ثلاثة شروط راجعة إلى المدخل السوسيولوجي، فقال.

"- والخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب.

- والسادس: الفراغ الذي يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار.

- والسابع: عدم القواطع المذهلة من هموم، وأمراض"[19].

أما قوله: "الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب"؛ فلا شك أن طالب الحديث أشد احتياجا إلى مال يغنيه عن البحث عن عمل ووظيفة تصرف همه، وتفرق عزيمته، فتلقي به في أودية ضياع مشاريعه العلمية.

ومن جهة أخرى فإن طالب الحديث يحتاج مؤنة كبيرة، لأن مصادر السنة عديدة، وكتب الحديث كثيرة، ولا يبلغ مرتبة التمام إلا بتحصيلها؛ لأن رأس ماله هو الإسناد، والأسانيد موزعة على الكثير من المصادر، وهو لا يستغني عنها، فلا يجد بدا من تحصيلها، أضف إلى ذلك ما عرفته الأمة من انفتاح على وسائل الطباعة المعاصرة، وقعت بثقلها على طالب الحديث، نظرا للغلاء المرتفع لأثمنة الكتب، فلا يقوى على امتلاكها إلا من كانت له مادة تغنيه.

والمحدثون لما استشعروا أهمية هذا الأمر، بادروا إلى حث طلبتهم على الأخذ، والسعي في تحصيل الضروري الذي به قوام حياتهم وعيالهم، ومن هؤلاء الأعلام، الإمام الخطيب البغدادي (ت463هـ) الذي عقد بابا في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي" في ذكر ما يجب على طالب الحديث من الاحتراف للعيال واكتساب الحلال[20]، وما من شك أن الخطيب لا يعقد بابا مستقلا، إلا لأهميته العظمى، وضرورته القصوى، وهو بهذه الترجمة يحث طلبة الحديث على السعي في كسب الرزق بما لا يدخل عليه وعلى أهله الضرر؛ لأن المرء لا يتجرد عن حاجاته التي ركبها الله تعالى في خلقه، من زواج، وطلب الدرية الصالحة، فالزهد المطلق في ذلك مخالف لهدي رسول الله ﷺ، فقد صح عنه لما سمع الرهط الذين زهدوا في الأكل والزواج والنوام، أنه قال: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[21].

قال أبو مسهر (ت218هـ): "كنا عند الحكم بن هشام، وعنده جماعة من أصحاب الحديث، فقال: إنه من أغرق في الحديث، فليعد للفقر جلبابا، فليأخذ أحدكم من الحديث بقدر الطاقة، وليحترف حذرا من الفاقة"[22].

ومن صحيح أدعية النبي ﷺ أنه كان يقول: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر"[23].

وعلى هذا السنن جرى أهل الحديث، فقد كان بعض المحدثين يأبى تحديث من ليس له قوت يكفيه ويغنيه. فقد رُوي عن عبد الرحيم بن سليمان (ت187هـ) أنه قال: "كنا عند سفيان

الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله: هل لك وجه معدشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية، أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية، أمره بطلب المعاش"[24].

قال الإمام ابن الجوزي (ت597هـ): "أبو بكر المفيد يعرف أبوه بالخفاف، سمع خلقا كثيرا، وما زال يسمع، ويتبع الأشياخ في الزوايا، وينقل السماعات، فلو قيل: إنه سمع من ثلاثة آلاف شيخ، لما رُدَّ قول القائل، وانتهت إليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا، وعلم الإجازات لكثرة دربته، صحب هزار بن عوض، ومحمودا الأصبهاني، إلا أنه كان قليل التحقيق فيما ينقل؛ لكونه كان يأخذ عن ذلك ثمنا، كان فقيرا، كثير الأولاد والتزوج"[25].

لذلك فإن من آكد الوظائف المنوطة بالتعليم العالي، تدريب الطالب على الكفايات الحياتية التي تجعله موصول الحبل بواقعه، وتمليكه المهارات اللازمة التي تؤهله خوض غمرة الواقع، "فمسالك التكوين الشرعي الجامعي للدراسات الشرعية ستُقَصّر في أداء مهمتها، إن لم تركز على الملكات المهنية التي تؤهل الطالب لممارسة الوظائف الشرعية والاجتماعية. فمن أهم مؤشرات قياس نجاعة مدخل الملكات قدرة الطالب على الربط بين ما يتلقاه في مسالك التكوين الجامعي، وانتظارات المجتمع وآماله من طلاب العلم الشرعي"[26].

يقول الإمام الماوردي (ت450هـ): "الفراغ الذي يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار"[27].

ولا يشك من له قبضة من أثر الاطلاع على الواقع، أن الطالب كلما انفتح على ماجريات الحياة، وألقى بنفسه في تفاصيلها اللامتناهية، إلا ودخل عليه الضرر في ملكته على قدر توسعه فيها، فأخطر الروافد المؤثرة في مرحلة الطلب، والتي تحول دون استكمال برنامجه: الإغراق والانهماك في الأحداث الاجتماعية، المتمثلة في الشبكات العنكبوتية، ولا أبالغ إن قلت: إن الطالب يخصص من الوقت للتسكع والتصفح على مواقع التواصل الاجتماعي أكثر مما يخصصه للقراءة والمطالعة، والاستزادة من التكوين الذاتي، معللا ذلك بمجاراة مستجدات العصر، ومواكبة متغيرات الواقع.

إن المتأمل الحصيف، يلحظ فتور همة الكثير من طلبة العلم، وتراجع إقبالهم عليه، وبعدهم عن القراءة المستمرة المثمرة، وأصول التكوين العلمي الرصين، وما ذلك إلى بسبب إغراقهم في الماجريات الشبكية، ومواقع التواصل الاجتماعي، التي أرغمتهم على التصفح القسري اليومي؛ فضيعت عليهم أوقاتهم وجهدهم، وأغرقتهم في مياه الغفلة، وفتور الهمة؛ فأبعدتهم عن أصول الطلب، إلى ملح الماجريات السياسية، والمناظرات الحزبية، والسجالات الصحفية.

إن الكثير ممن صار مملوكا لهذه الماجريات الشبكية، يبرر ذلك بمعرفة الواقع، والتفقه فيه، حتى يقوى على مسايرة المستجدات، ومواجهة تحديات الدولة المدنية الحديثة.

إننا لا ننكر ضرورة معرفة الواقع، والإحاطة بمستجداته وتطوراته؛ بل نقول: إن العالم أو الداعية إلى الله تعالى لا ينبغي أن يكون بطرحه الدعوي في واد، وأن تكون الأمة بواقعها وأزماتها في واد آخر، بل لا يستطيع الفقيه الذي استجمع شروط النظر في الأدلة، وتأهل للاستنباط منها، أن يُنزل الأحكام الشرعية وهو بعيد عن واقعه، جاهل بأحوال المكلفين، وما احتف بهم من متغيرات الواقع؛ بل إن الذي يميز عالما عن آخر هو قدرته على ما سماه الإمام الشاطبي (ت790هـ): بتحقيق المناط بشقيه العام والخاص[28].

إن معرفة الواقع ليس بدعا من القول، ولا هو شرط دخيل على الفقه الإسلامي كما يزعم البعض، بل هو أصل عظيم من أصول الفتوى، وركن في صحتها، لكن يجب أن نقيد هذه المعرفة بمبدأ الوظيفية؛ أي: التمييز بين معرفة الواقع والإغراق فيه، والتمييز بين "المتابعة المتفرجة والمتابعة المنتجة، والتمييز بين المتابعة زمن التحصيل، والمتابعة زمن العطاء"[29].

إن طالب العلم في مراحل الفتوة والعطاء، ينبغي أن يركز جهده، ويبذل حشاشة نفسه، ويصرف ثمين وقته في التحصيل العلمي الرصين، الذي يصنع منه طالب علم بحق، ويؤهله إلى سد حاجات الأمة من الخطط الشرعية: الإمامة، والخطابة، والوعظ والإرشاد، والإفتاء، والتعليم...إلخ، ويمكنه من الدفاع عن حياض الشريعة، والرباط على ثغورها؛ حرسا لحدودها، ودفاعا عن ثوابتها وأصولها، ودون هذا المسلك الأصيل، فإنا على إياس أن يدرك الطالب بغيته، أو يحصل مقصوده، بل إنه بصنيعه هذا أقرب إلى سراب العلم منه إلى حقيقته.

وليصدق الطالب نفسه أنه بإغراقه في هذه الماجريات يحصل معرفة مشوهة، وتأهيلا هزيلا، وتكوينا مخروما، مبنيا على شفا جرف هار؛ فانهار به في واد الجهل، ومستنقعات الوهم والتخمين، ولوك اللسان بالمقتطفات الشبكية.

فمتى كانت مواقع التواصل الاجتماعي مصدر التلقي عند المحققين من أهل العلم وطلابه؟ ومتى كانت النظرات العابرة سبيلا للترقي في مدارج التحصيل والرسوخ فيه؟ ومتى كانت السجالات الصحفية حلبة لارتياض الفكر، واستتمام النظر؟

فمن قصر عن مرتبة التحقيق، "ولم يأت العلم من بابه، ولم يطلبه من معدنه، ولم يسلك إليه طريقه"[30]، فاعلم أنه ممن أنس التقليد، فلا يطمع إذن في الرقي ولا المزيد، بل إن مدار

اللائمة، ومستقر المذمة، أن يوهم الطالب نفسه أنه بسنن المتقدمين اقتدى، وبصنيع المتأخرين احتذى، وما هو في حقيقة الأمر إلا ممن أخلد إلى الأرض، واتبع الهوى، ورضِي من الغنيمة بالإياب.

لذلك لا يطمع الملقي بنفسه في غيابات الواقع أن يصل إلى منزلة الملكة الحديثية، بل لا بد له من التفرغ الذي يمكنه من الرسوخ في الصناعة، وتملك أدواتها، فإنه إن اجتهد، وحبس نفسه بالصبر والمصابرة، رجي له في مستقبل أيامه أن يدخل في زمرة المحدثين.

يقول الإمام الخطيب البغدادي (ت463هـ): "إذا تميز الطالب بفهم الحديث ومعرفته، تعجل بركة ذلك في شبيبته، والطريق إليه: ما ذكرنا من دوام السماع والإكثار منه، والمطالعة له، والنظر فيه والمذاكرة به، وصرف العناية إليه"[31].

وصرفُ العناية، يراد به الانقطاع التام، والانصراف بكليته إليه، وأن لا يزاحمه بصوارف الحياة، وألا تقع له الفترة والانقطاع عن التحصيل، فإن ذلك من الغوائل الصادة له عن إدراك بغيته.

يقول الحافظ السخاوي (ت902هـ) في ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر (ت852هـ): "كانت همته المطالعة والقراءة والسماع والعبادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يخلي لحظة من أوقاته عن شيء من ذلك"[32].

وقد ذكر الإمام الذهبي (ت748هـ) بعضا ممن طلب الحديث، ولكنه صرفته عوارض الحياة عن إتمام طلبه، فقال: "محمد بن أحمد بن تمام، طلب الحديث قليلا، ونسخ بعض مروياته، ونسخ بخطه المليح كثيرا للناس، وقراءته جيدة؛ لكنه لم يفرغ لأعباء الفن"[33].

ولما ترجم للحافظ جمال الدين عبد الله المقدسي (ت 629هـ) وسمه بالنباهة، والإتقان، والمعرفة؛ لكنه لم يستمر على هذا الحال، فقال: "قال أبو الفتح ابن الحاجب: لو اشتغل أبو موسى حق الاشتغال ما سبقه أحد؛ ولكنه تارك"[34].

يقول الدكتورمشاري الشتري: "إن من أكبر ما يواجه طالب العلم في هذا الزمن، كثرة الصوارف التي تشعب همومه وتصرفها عن العلم، فكم رأينا من طلبة علم تخطفتهم يد الدنيا بزخرفها وماديتها، فأقبلوا عليها، ونبذوا ما حصلوه من علم وراء ظهورهم، ولو أنهم بلغوا من العلم غايته، وذاقوا بمعاناة حقائقه لذته لاستغنوا، ولكن بريق دنياهم أسرع من تخطفهم، ولم يلق منهم غيرة على علم ولا تحصيل"[35].

أما قول الإمام الماوردي (ت450هـ): "عدم القواطع المذهلة من هموم، وأمراض"[36]. فلا شك أن القواطع سبب في كدر الذهن، وصرفه عن تمام التصور وصحته، فتلقي عليه الهموم المذهلة، والمشوشات المؤثرة بثقلها فلا تترك له مجالا لإخلاء الفكر، وتخمير ما تحمَّله حتى يحصل له التدقيق فيما جمع؛ لذلك فالهموم والقواطع تحول بين الطالب وبين كشف خفي العلم، وإدراك دقيق المسائل التي تحتاج إلى فراغ الذهن وصفائه، "ولا شيء ينال - طال فيه الفكر أو قصر- إلا بتجريد الفكر في جهة الطلب"[37].

يقول الإمام الزرنوجي (ت593هـ): "ينبغي لطالب العلم أن يكون متأملا في جميع الأوقات في دقائق العلوم، ويعتاد ذلك؛ فإنما يدرك الدقائق بالتأمل، ولهذا قيل: تأمل تدرك" [38].

وقد بث الإمام المناوي (ت1031هـ) في مقدمة شرحه على نخبة الفكر، ما عرض له من الهموم والقواطع ما جعل خاطره مكدرا، ورغبته فاترة، وعزيمته منحطة، حتى أحجمت نفسه على الإدبار، بعد سبق عزم الإقبال، واحتف به من الأمراض والهموم ما جعل الخاطر منكسرا، والدمع منهمرا، فقال: "شرعت فيه بعد الإلحاح مع قل البضاعة، وقصر الباع في هذه الصناعة، فسودت أكثره، ثم حال دون إتمامه وتبييضه أني رميت بخطوب سقتني من الهموم عقارا، ومصائب لم أجد لي معها عن تمني الموت اصطبارا. كيف لا وقد أصبحت القريحة قريحة، والجوارح جريحة، والحواس العشرة عليلة غير صحيحة، قد رماني بالسهم زماني، حتى أحجمت النفس عن الأماني وثمرة الفؤاد قد فقدت، ونار الحزن في الجنان قد اشتعلت واتقدت، والخاطر منكسر، والدمع منهمر، وصرت كمعتوه، أو من به طيف من متقطع جنون، فإنا لله وإنا إليه راجعون"[39].

فهذا النص من أبين الشواهد الدالة على وقع أثر المدخل الاجتماعي، ومدى تأثيره على شخصية المحدث، فضلا عن طالب العلم الذي لم ترسخ قدمه، ولم تتوطد عزائمه على مسلك الطلب والتحصيل.

وممن بين أثر صوارف المجتمع وعوارضه وصرح بذلك، الإمام ابن الأثير (ت606هـ)، في مقدمة كتابه "جامع الأصول في أحاديث الرسول" بقوله: "فاستخرت الله تعالى، وسألته أن يجعله خالصاً لوجهه، ويتقبله ويعين على إنجازه بصدق النية فيه، ويسهله، وهو المجازي على مودعات السرائر، وخفيات الضمائر. هذا مع كثرة العوائق الدنيوية، وازدحام العوارض الضرورية، وتكاثر الفوادح [40]النفسانية، وضيق الوقت عن فراغ البال لمثل هذا المهم العزيز، والغرض الشريف

الذي إذا أعطاه الإنسان كله وأتاه منه أيسره، وإذا قصر عليه عمره أمكنه منه أقصره، ولولا أن الباعث عليه ديني، والغرض منه أخروي، لكانت القدرة على الإلمام به واهية، والهمة عن التعرض إليه قاصرة، والعزيمة عن الشروع فيه فاترة، وإنما كان المحرك قويا، والجاذب شريفا عليا"[41].

فالذي نخلص إليه أن الأصل السوسيولوجي مؤثر في تكوين الملكة الحديثية، والطالب يحتاج إلى فقه التعامل معه، حتى لا يحصل له الانقطاع بالجملة عنه، فيدخل عليه الضرر بسبب ذلك، وألا يتوسع توسعا يصرفه عن التأصيل واستكمال برنامج الطلب، "فجمع الهم إذا هو الخلاص لطالب العلم من مطرقة تشعب العلم وسندان الأحداث المحيطة، وهو الشرط الذي بتخلفه تنحل عرى التحصيل العلمي.

ومن أشد موانع الهم من الانجماع والعلم من الاجتماع: تقطع التحصيل وتعثره، فالعلم يحتاج من طالبه مواظبة؛ ليرتاض به، بذلك ينجمع همه، ويثبت علمه، وتنضبط معارفه، وإلا فما أسرع علمه إلى الأفول، ونبته إلى الحطام. ولاتقاء ذلك؛ فعلى طالب العلم أن يعتاد العلم، ويديم النظر فيه، ويألف ملابسته، أيا كان نوع الملابسة؛ تعلما وتعليما، قراءة وحفظا، سماعا وحضورا"[42].

المبحث الرابع: التربية الصحية و أثرها على شخصية طالب علوم الحديث.

من الأمور المهمة التي آثرتُ إلحاقها بالأصل الاجتماعي، والتي أولاها علماء الحديث عناية بالغة، مسألة التربية الصحية، المتعلقة بأنواع التغذية، وعدد ساعات النوم، وما يرتبط براحة الطالب؛ لأن كل ذلك من لوازم الطلب، ومن الروافد المؤثرة في تحصيله، وتكوين ملكته، وبناء ذاته بناء سليما، فعلى قدر الضعف الحاصل فيها، والتفريط في تناولها يدخله الضرر، الذي يعود عليه بالأثر السلبي في صحته، ومن ثم على استيعابه ودرجة تحصيله؛ لذلك أوصى المحدثون أن يأخذ الطالب من التغذية والنوم والراحة ما يكون عونا له على التصبر على مشاق الطلب ولأوائه.

إن الدراسات المعاصرة المتعلقة بعلم النفس المعرفي، تؤكد على أهمية الغذاء السليم، والراحة النفسية، في بناء المخ بناء سليما، والرفع من مردودية التحصيل، والحصول على توازن يمكن من الاستمرارية في حصد النتائج الجيدة.

يقول الدكتور محمد سليمان موسلمال: "إن كثيرا من الناس يتسببون في ضعف أدمغتهم نتيجة جهلهم بالثقافة الغذائية، وعدم تناول بعض الأطعمة التي توفر لهم العناصر الغذائية اللازمة لتغذية ذاكرتهم تغذية صحيحة كاملة [...] وإذا كانت ثقافة التغذية من الحلول الرئيسة

والأساسية للحفاظ على قوة المخ، والحد من النسيان، فعلى كل شخص أو طالب يريد المحافظة على ذاكرته أن يتبع نظاما متوازنا في تغذيته، لا إفراط، ولا تفريط"[43].

لقد عقد الإمام الخطيب البغدادي (ت463هـ) مبحثا في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"، تحدث فيه عن أنواع المآكل المستحب تناولها، والمأمور باجتنابها للحفظ [44]، وذكر جملة من الأنواع التي ترجع في اختيارها إلى العرف، وما عليه أهل كل بلد، والقصد منها جميعا، الاعتناء بما يقوي الذاكرة، وتجنب ما يضعفها، أما تعيين آحادها فذلك متوقف على العادة والعرف.

أما مدة النوم؛ فقد حثوا على ألا يقل عن ثماني ساعات، فهي أريح للبدن، وأدعى لاسترجاع ما به يتقوى على الطلب، وتلك وصية المحدث ابن جماعة (ت733هـ)، فمما قاله أن الطالب ينبغي له أن "يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه، وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثماني ساعات، وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل، ولا بأس أن يريح نفسه، وقلبه، وذهنه، وبصره إذا كل شيء من ذلك أو ضعف، بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله، ولا يضيع عليه زمانه. ولا بأس بالمشي ورياضة البدن، فقد قيل: إنه ينعش الحرارة، ويذيب فضول الأخلاط، وينشط البدن"[45].

فهذه وصية جامعة لأصول التربية الصحية التي يلزم الطالب أن يأخذ منها بما يقيم بدنه على المنهج السليم، وما يرجع عليه في طلبه بالنفع العميم، ولا يتوهم أن هذا الأمر ترف لا عائدة ترجى منه، بل إنه من ضرورات الطلب وأسسه.

وقبل الفراغ من هذا البحث، أراني مضطرا إلى التنبيه على أمر مما له صلة وطيدة بالمدخل الاجتماعي، ومن آكد ما ينبغي على المحدث رعيه في تجريح الرواة وتعديلهم، ومن غفل عنه دخل عليه القصور في توثيقه للرواة في جانب العدالة، وهذا الأمر يرجع إلى تزكية الراوي في جانب مروءته؛ إذ إن الكثير منها مما له تعلق بالعرف، ومعرفة الأعراف راجعة إلى خصائص كل قُطر، فيلزمه أن يعرف ما يدخل فيها وما ليس كذلك؛ لأن تجريح الراوي بما يعد من خوارم المروءة لدى الجارح هضم لحقه، وجناية عليه في عدالته، ومحاكمة له بعرف لم ينشأ عليه، ولا يعرفه أهله بلده.

يقول الحافظ السخاوي (ت902هـ) في شرط العدالة: "وما أحسن قول الزنجاني في شرح الوجيز: المروءة يرجع في معرفتها إلى العرف، فلا تتعلق بمجرد الشرع، وأنت تعلم أن الأمور

العرفية قلما تضبط، بل هي تختلف باختلاف الأشخاص والبلدان، فكم من بلد جرت عادة أهله بمباشرة أمور لو باشرها غيرهم لعد خرما للمروءة"[46].

خاتمة:

فهذه أهم العناصر والمكونات المندرجة تحت المدخل السوسيولوجي، وهي من أبرز الروافد المؤثرة في تكوين الملكة الحديثية، ومن آكد الأصول الواجب رعيها في طريق الطلب والتحصيل، وعلى قدر اعتبارها ينضبط سيره، ويستقيم ارتقاؤه في منازلها، وعلى قدر إغفالها يدخل عليه القصور في تحصيلها، فليتزود منها الطالب بما به يصل إلى مناه، وليأخذ منها ما به يدرك مبتغاه، وعلى الله قصد السبيل.

❁ خلاصات البحث ونتائجه:

أ- إن البحث في الشروط السوسيولوجية لتحصيل الملكة، ومسالك اكتسابها، يعد من الأهمية بمكان؛ لأن جودة مخرج الدرس الشرعي، إنما تقاس بمدى حصول الملكة لدى خريجي شعب الدراسات الإسلامية، وكليات الشريعة، بل هي أصول ومسالك يحتاجها طالب الحديث، سواء كان في الجامعة أو خارجها.

ب- إن الأصل السوسيولوجي ركن أساسي في تكوين الملكة الحديثية، وشرط في بلوغ الطالب إلى المنزلة العليا في علم الحديث، ولا يمكن الاستغناء عنه.

ج- اهتم المحدثون بالشروط الاجتماعية؛ حيث تحدثوا عن تأثير الأسرة، والأقران، ومحيط الدراسة، وبينوا أهميتها في جودة التحصيل، وتحفيز الطالب على التعلم.

د- يعتبر التعليم بالقرين من أهم الوسائل المعتمدة عند علماء الحديث في تدريب الطالب على تمثل أخلاق الحديث.

❁ التوصيات:

بناء على كل ما سبق إيراده فإن البحث يخلص إلى مجموعة من التوصيات، والتي من شأنها أن تسهم في إعداد البرامج التربوية وعلى إعادة النظر في طرق تدريس تلك العلوم، وذلك كما يلي:

أ- ضرورة إنجاز بحوث ميدانية، ترصد واقع تدريس العلوم الشرعية بمختلف المعاهد والجامعات الشرعية؛ لأن ذلك يعد أمرا مهما في الوقوف على مكامن الداء، وعلى مواطن القوة في تدريس هذه العلوم.

ب- وضع دليل عملي ينطلق من نتائج الدراسات المؤصلة للمدخل السوسيولوجي، ويضيف عليها نتائج الدراسات الميدانية، تيسيرا للعاملين في هذا المجال، مع الاستفادة من تجارب الأساتذة المشتغلين بتدريس العلوم الشرعية، والإفادة منهم في وضع مرتكزاته، وإرساء أصوله. وهذا الدليل يكون شاملا للتدريس، من حيث الأهداف، والمحتوى، والطرق، وللتقويم أيضا، من خلال إعداد إطار مرجعي يتضمن الضوابط العملية للممارسة التقويمية.

*** قائمة المصادر والمراجع:**

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ﷺ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وآخرون، دمشق، دار ابن كثير، 2016م (ط3).

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (توفي 471هـ/1078م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود شاكر، شركة القدس، 1992م (ط3).

الجرجاني، علي بن محمد (توفي 816هـ/1413م)، **التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة.

جسوس، عبد اللطيف بن عبد الغني، **نجم من أعلام السلف في علماء الخلف في ترجمة محدث المغرب فضيلة الشيخ الحافظ عبد العزيز بن الصديق الغماري**، طنجة، مطبعة سليكي أخوين، 2014م (ط1).

ابن جماعة، بدر الدين أبو عبد الله الكناني الحموي (توفي 733هـ/1332م)، **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم**، تحقيق: عبد الكريم العمري، القاهرة، دار الآثار، 2007م (ط1).

الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (توفي 478هـ/1085م)، **البرهان في أصول الفقه**، تحقيق: صلاح بن عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، (ط1).

الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (توفي 405هـ/1014م)، **معرفة علوم الحديث وكَمِّية أجناسه**، تحقيق: أحمد بن فارس السَّلوم، الرياض، مكتبة المعارف، 1431هـ (ط2).

حليم، سعيد بن محمد، **أسس ومسالك اكتساب الملكة الحديثية**، فاس، مطبعة آنفو برانت، 2020م (ط1).

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (توفي 463هـ/1071م)، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1983م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (توفي 808هـ/1406م)، **المقدمة**، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2012م (ط1).

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **المعجم المختص بالمحدثين**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الهيلة، 1988م (ط1).

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **تذكرة الحفاظ**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، 1375هـ

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **سير أعلام النبلاء**، أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م (ط3).

الزرنوجي، برهان الدين (توفي 593هـ/1197م)، **تعلم المتعلم في طريق التعلم**، تحقيق: صلاح الخيمي ونزير حمدان، دمشق، دار ابن كثير، 2014م (ط3).

السخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (توفي 902هـ/1428م)، **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، تحقيق: عبد الكريم بن عبد الله الخضير ومحمد بن عبدالله آل فهيد، الرياض، مكتبة المناهج، 1426هـ (ط1).

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (توفي 902هـ/1428م)، **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، بيروت، دار ابن حزم، 1999م (ط1).

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (توفي 902هـ/1496م)، **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، تحقيق: عبد الكريم الخضير ومحمد آل فهيد، الرياض، مكتبة المنهاج، 2016م، (ط4).

السكران، إبراهيم بن عمر، **الماجريات**، مركز تفكر للبحوث والدراسات، 2015م (ط1).

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (توفي 790هـ/1388م)، **الموافقات**، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997م (ط1).

الشتري، مشاري بن سعد، **ارتياض العلوم**، مركز البيان للبحوث والدراسات، 1437هـ (ط2).

الشتري، مشاري بن سعد، **عبقرية الإمام الشافعي: المدد والمداد**، الرياض، مركز البيان للبحوث والدراسات، 2019م (ط1).

الشوكاني، بدر الدين محمد بن علي (توفي 1250هـ/1835م)، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، بيروت، دار المعرفة، 1348هـ (ط1).

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (توفي 1393هـ/1973م)، **أليس الصبح بقريب**، القاهرة، دار السلام، 2010م (ط3).

غريب، عبد الكريم، **المنهل التربوي**، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، مطبعة الناجح الجديدة، 2006م (ط1)، ج1، ص168.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني (توفي 395هـ/1004م)، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون لابن فارس، بيروت، دار الفكر، 1979م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (توفي 450هـ/1058م)، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق: محمد المنيع، الرياض، دار الإفهام، 2018م (ط1).

محسين، يونس، **المناهج الجامعية لتدريس علوم الشريعة مرجعية التقويم ومداخل التجديد**، الولايات المتحدة الأمريكية، فرجينيا، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2024م (ط 1).

المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي 1031هـ/1622م)، **اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر**، تحقيق: المرتضي الزين أحمد، الرياض، مكتبة الرشد، 1999م (ط1).

موسلمال، سليمان محمد، **بناء المخ القوي، كيف تكون قوي التركيز والتفكير؟**، دمشق، دار وحي القلم، 2018م (ط1).

الهوامش:

.

(1) الشتري، مشاري بن سعد، **عبقرية الإمام الشافعي: المدد والمداد**، الرياض، مركز البيان للبحوث والدراسات، 2019م (ط1)، ص165.

(2) يقول الحاكم: "لما رأيت البدع في زماننا كثرت، ومعرفة الناس بأصول السنن قد قلت، مع إمعانهم في كتابة الأخبار، وكثرة طالبيها على الإهمال والإغفال؛ دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف، يشمل على أنواع علوم الحديث". الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (توفي 405هـ/1014م)، **معرفة علوم الحديث وكَمِّية أجناسه**، تحقيق: أحمد بن فارس السَّلوم، الرياض، مكتبة المعارف، 1431هـ (ط2)، ص110.

(3) وقد ألفيت الحافظ السخاوي مصرحا بهذه الوظيفة نصا في شرحه على ألفية العراقي قال: "ومن أعظم فوائده؛ أي: علم الحديث، حفظ السنة من أعدائها المدخلين فيها ما ليس منها، فقد اقتحم كثير من الناس أمرا عظيما، ونسبوا إلى النبي ما ينبو السمع عنه، فلولا أن الله حفظ الشريعة بنقاد الحديث؛ لاضمحل الدين وتهدمت أركانه. ولولا بقايا من علماء الحديث؛ لوقع من الكذب عليه، والتحريف لكلامه ما الله به عالم". السخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (توفي 902هـ/1428م)، **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، تحقيق: عبد الكريم بن عبد الله الخضير ومحمد بن عبدالله آل فهيد، الرياض، مكتبة المناهج، 1426هـ (ط1)، ج3، ص219.

(4) محسين، يونس، **المناهج الجامعية لتدريس علوم الشريعة مرجعية التقويم ومداخل التجديد**، الولايات المتحدة الأمريكية، فرجينيا، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2024م (ط 1)، ص406.

(5) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (توفي 808هـ/1406م)، **المقدمة**، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2012م (ط1)، ص452.

(6) نفس المصدر، ص452.

(7) ينظر: ابن خلدون، **المقدمة**، ص415-416-449-450-451-452.

(8) الجرجاني، علي بن محمد (توفي 816هـ/1413م)، **التعريفات**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة، ص192-193.

(9) حليم، سعيد بن محمد، **أسس ومسالك اكتساب الملكة الحديثية**، فاس، مطبعة آنفو برانت، 2020م (ط1)، ص48.

(10) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (توفي 1393هـ/1973م)، **أليس الصبح بقريب**، القاهرة، دار السلام، 2010م (ط3)، ص43.

(11) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **سير أعلام النبلاء**، أشرف على التحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م (ط3)، ج12، ص614-615.

(12) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **تذكرة الحفاظ**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، 1375هـ، ج4، ص127.

(13) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج4، ص130.

(14) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج3، ص162.

(15) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج7، ص269.

(16) الشوكاني، بدر الدين محمد بن علي (توفي 1250هـ/1835م)، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، بيروت، دار المعرفة، 1348هـ (ط1)، ج1، ص28.

(17) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (توفي 902هـ/1428م)، **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، بيروت، دار ابن حزم، 1999م (ط1)، ج1، ص169.

(18) جسوس، عبد اللطيف بن عبد الغني، **نجم من أعلام السلف في علماء الخلف في ترجمة محدث المغرب فضيلة الشيخ الحافظ عبد العزيز بن الصديق الغماري**، طنجة، مطبعة سليكي أخوين، 2014م (ط1)، ص62-63.

(19) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (توفي 450هـ/1058م)، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق: محمد المنيع، الرياض، دار الإفهام، 2018م (ط1)، ص67-68.

(20) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (توفي 463هـ/1071م)، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1983م، ج1، ص97.

(21) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (5063).

(22) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ج1، ص99.

(23) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج، المسند الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (2720).

(24) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ج1، ص98.

(25) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج20، ص299-300.

(26) محسين، يونس، **المناهج الجامعية لتدريس علوم الشريعة مرجعية التقويم ومداخل التجديد**، ص407.

(27) الماوردي، **أدب الدنيا والدنيا**، ص67-68.

(28) ينظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (توفي 790هـ/1388م)، **الموافقات**، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، 1997م (ط1)، ج5، ص23.

(29) السكران، إبراهيم بن عمر، **الماجريات**، مركز تفكر للبحوث والدراسات، 2015م (ط1)، ص20-22.

(30) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (توفي 471هـ/1078م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود شاكر، شركة القدس، 1992م (ط3)، ص453.

(31) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ج2، ص181.

(32) السخاوي، **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، ج1، ص170.

(33) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (توفي 748هـ/1348م)، **المعجم المختص بالمحدثين**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الطائف، مكتبة الهيلة، 1988م (ط1)، ص228.

(34) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج4، ص136.

(35) الشتري، مشاري بن سعد، **ارتياض العلوم**، مركز البيان للبحوث والدراسات، 1437هـ (ط2)، ص74.

(36) الماوردي، **أدب الدنيا والدنيا**، ص74.

(37)الجويني، عبد الملك (توفي 478هـ/1085م)، **البرهان في أصول الفقه**، تحقيق: صلاح بن عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، (ط1)، ج1، ص36.

(38) الزرنوجي، برهان الدين (توفي 593هـ/1197م)، **تعلم المتعلم في طريق التعلم**، تحقيق: صلاح الخيمي ونزير حمدان، دمشق، دار ابن كثير، 2014م (ط3)، ص91-92

(39) المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (توفي 1031هـ/1622م)، **اليو اقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر**، تحقيق: المرتضي الزين أحمد، الرياض، مكتبة الرشد، 1999م (ط1)، ج1، ص115.

(40) قال ابن فارس: "فدحه الأمر، إذا عاله وأثقله، فدحا، وهو أمر فادح". ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني (توفي 395هـ/1004م)، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون لابن فارس، بيروت، دار الفكر، 1979م، ج4، ص484.

(41) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ﷺ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وآخرون، دمشق، دار ابن كثير، 2016م (ط3)، ج1، ص16.

(42) الشتري، **ارتياض العلوم**، ص52.

(43) موسلمال، سليمان محمد، **بناء المخ القوي، كيف تكون قوي التركيز والتفكير؟**، دمشق، دار وحي القلم، 2018م (ط1)، ص111-112.

(44) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ج2، ص262.

(45) ابن جماعة، بدر الدين أبو عبد الله الكناني الحموي (توفي 733هـ/1332م)، **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم**، تحقيق: عبد الكريم العمري، القاهرة، دار الآثار، 2007م (ط1)، ص112.

(46) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (توفي 902هـ/1496م)، **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، تحقيق: عبد الكريم الخضير ومحمد آل فهيد، الرياض، مكتبة المنهاج، 2016م، (ط4)، ج2، ص160.